الرُّسل من قبله كانوا بشراً مثله « وما أرسلنا قبلك من المرسلين إلا إنهم ليأكلون الطَّعام ويمشون في الأسواق » (سورة الفرقان ، آية ٢٠) .

لقد أتت الرِّسالة المحمَّديَّة مُبَشِّرةً بعصر جديد وفكر جديد فيما يتعلَّق بالنُّبوَّة ، عصر يعتدُّ بالعقل ، وفكر لا يحاول أن يبهر الأبصار بخوارق الطَّبيعة وإنَّما يحاجُّ بالكلمة الطَّيِّبة المُقْنِعة ، والكلمة هي أرفع ما وهبه الله الإنسان مميِّزاً له عن سائر ضروب الحيوان . ولهذا فإننا نجد الإسلام أقلَّ الأديان استِناداً إلى تلك المعجزات والخوارق ، التي كانت آياتٍ لمن سبق محمداً من الرُّسُل ، فهو لم يحوِّل العصا إلى حيَّة تسعى ، ولم يُحْيِ الموتى ولم يبرئ الأكمه أو الأبرص ، وإنَّما كانت معجزته الكبرى تتمثَّل في الكلمة ؛ في ذلك الكتاب الذي أنزل عليه ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، وهو الذي تحدَّى به أهل عصره وهم أهل اللِّسَن والفصاحة « قل لئن اجتمعت الإنس والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً » (سورة الإسراء ، آية ٨٨) .

صحيح أن كُتُبَ السِّيرة نَسَبَتْ إلى الرَّسول ﷺ معجزاتٍ ظلَّت تتزايد وتتضخَّم بعد ذلك على مرِّ العصور ، وأضاف إليها الخيال الشَّعبيُّ كثيراً من التَّفاصيل ، غيرَ أن الاعتقاد في أكثر هذه المعجزات ليس شرطاً من شروط الإيمان الصَّحيح . ثم إن المعجزات التي ظهرت على أيدي الرُّسُل السَّابقين لم تُفلح في جذب المعاندين المُصرِّين على كفرهم إلى حظيرة الإيمان ، إلا على نحو مؤقَّت محدود ، بل كثيراً ما كان هؤلاء يتمادون في غيِّهم على الرَّغم مما شهدوه من آيات باهرة . وفي أحداث سيرة الرَّسول ﷺ ما يدلُّ على قِلَّة جدوى هذه المعجزات ، فنحن نرى عبد الله بن أبي أميَّة (وهو ابن عمَّة الرَّسول) يقول له إنه لن يؤمن له حتى يتَّخذ إلى السَّماء سُلَّماً يرقى فيه ، ثم يأتي بأربعة من الملائكة يشهدون بنبوَّته ، ثم يردف ذلك بقوله : « وأيمُ الله لو